نقل تكنولوجيا استخراج الذهب
صفحة من العلاقات المصرية الروسية فى عهد محمد على

جينادى جاريا تشكن

جامعة موسكو

كان افتتاح قنصلية روسية بمصر عام ١٧٤٨، فاتحة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، تلك العلاقات التى توطدت فى عهد محمد على باشا الكبير، ولما كان حاكم مصر يسعى لإقامة دولة مركزية حديثة فى مصر، فقد تطلب ذلك إدخال إصلاحات فى مجالات عدة من بينها الصناعة، وخاصة صناعة التعدين.

منذ مدَّ محمد على حكمه إلى السودان فى مطلع العشرينات من القرن التاسع عشر، كان من بين أهدافه البحث عن خام الذهب واستخراجه من منطقة فازوغلى جنوب سنار، واستخدم فى هذا الصدد جهود أحد الخبراء الفرنسيين الذى عجز عن التوصل إلى طريقة استخلاص خام الذهب من الشوائب العالقة به.

ولما كان محمد على حريصاً على التماس الخبرة أينما وجدت، فقد علم من "ميديم" قنصل روسيا فى مصر بتوفر الخبرة المنشودة فى روسيا، فطلب منه (يونيو ١٨٣٨) أن يبعث إلى حكومته فى طلب المعلومات الخاصة بطريقة استخلاص الذهب والرسوم الخاصة بالمعدات المستخدمة لذلك، فاستجابت الحكومة الروسية لهذا الطلب وتلقى محمد على المعلومات المطلوبة مترجمة إلى الفرنسية بعد ما يزيد على ثلاثة أعوام (نوفمبر ١٨٤١). ولكن محمد على طلب من القنصل الروسى أن يساعده فى استقدام بعض مهندسى هيئة التعدين الروسية لمساعدة الحكومة المصرية على تدريب الفنيين المصريين على استخراج الذهب، وبناء المعدات اللازمة لذلك. فاعتذرت الخارجية الروسية عن عدم تلبية الطلب بسبب زيادة الطلب على الفنيين

الروس فى هذه الصناعة نتيجة التوسع الكبير فيها فى روسيا عندئذ، واقترحت على الباشا (يوليو ١٨٤٣) أن يوفد إلى روسيا بعض المصريين لتعلم هذه الصناعة هناك بالمصانع الحكومية بمدينة يكاتيرينبورج.

ووافق محمد على باشا على الاقتراح الذى قدمته له الحكومة الروسية باسم القيصر، وقرر ايفاد مبعوثين إلى روسيا لدراسة التعدين فى خريف ١٨٤٥. وقد وقع اختيار الباشا على شابين هما على محمد، وايليا داشورى، وكانا قد درسا التعدين فى النمسا من قبل، ويجيدان الألمانية والفرنسية.

وصل المبعوثان إلى روسيا فى اكتوبر ١٨٤٥، وأقاما وراء جبال أورال حتى مايو ١٨٤٦، وكان برفقتهما مهندس التعدين الروسى أ.ب. كوفاليفسكى، وتم تدريبهما على طرق استخلاص الذهب من الرمال الحاوية للمعدن ببعض المصانع الروسية بالمنطقة، وإطلاعهما على مختلف الآلات المستخدمة فى الاستخلاص، وتدريبهما على فك وتركيب تلك الآلات تمهيداً لقيامهما بهذه المهمة فى مناجم الذهب بفازوغلى بالسودان عند انتهاء تدريبهما وعودتهما إلى مصر.

وبعد عودة على محمد وايليا داشورى من روسيا، تم إيفادهما إلى السودان، حيث قاما بدراسات حقلية بمناطق مختلفة فيما بين خريف ١٨٤٦ وربيع ١٨٤٧. ولحق بهما مدربهما الروسى كوفاليفسكى الذى جاء بناء على طلب من محمد على باشا، وبصحبته ثلاثة من الفنيين الروس: واستطاع أن يحقق نتائج جيدة بمساعدة تلميذيه السابقين على وايليا، فتمكن الفريق من إقامة مصنع لاستخلاص الذهب بفازوغلى، وتشغيله بقدر كبير من النجاح، وعُدَّ هذا المصنع نموذجاً يمكن إقامة مصانع أخرى على نسقه فى أماكن أخرى. وعاد كوفاليفسكى إلى روسيا فى صيف عام ١٨٤٨ بعد أن منحه إبراهيم باشا وساماً رفيعاً وبعض الهدايا تقديراً لجهوده فى تزويد الحكومة المصرية بالخبرة اللازمة لاستخلاص الذهب.

وبعد عودته إلى روسيا، قدم كوفاليفسكى تقريراً عن مهمته فى مصر والسودان، فقد كلف عند سفره بدراسة الأوضاع الجيولوجية بالمنطقة مع جمع عينات منها، وبيانات حول المخطوطات والبرديات القديمة. وجاء بتقريره وصف للأوضاع السياسية والتجارية فى السودان واثيوبيا، وأكد أهمية إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية لروسيا مع بلدان أفريقيا الشمالية الغربية وخاصة مصر، وقدم قائمة بالبضائع الروسية التى يمكن تصديرها للمنطقة. والمواد التى يمكن استيرادها منها، واقترح تنظيم خط ملاحى روسي يربط أوديسا باستانبول والإسكندرية تساهم فيه الحكومة الروسية. وكانت ثمرة هذه الاقتراحات تأسيس شركة الملاحة والتجارة الروسية.

وهكذا طُوِيَتْ هذه الصفحة الهامة فى العلاقات المصرية الروسية، ولعل وفاة محمد على وإبراهيم وتغير أحوال مصر بعدهما لم تتح الفرصة لتنميتها وقد اعتمدنا فى إعداد هذه الدراسة على وثائق أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الإمبراطورية(*) وربما كانت دار الوثائق التاريخية القومية بالقاهرة تضم وثائق تحوى بعض تفاصيل تلك التجربة الهامة لنقل تكنولوجيا استخراج الذهب من روسيا إلى مصر.

(*) جميع المراسلات الخاصة بمهمة على محمد وايليا داشورى فى روسيا ومهمة كوفاليفسكى فى مصر والسودان مودعة بالأرشيف المذكور بموسكو (الصندوق – "سانكت – بطرسبورج – الأرشيف السياسى") ملف ١٠-١١، الفترة ١٨٣٨-١٨٤٨).